في معركة اليرموك

شهدت أسماء كثيراً من الأحداث المهمة في الإسلام، وكان لها دور مهم في هذه الأحداث، ولا سيما في هجرة رسول الله ﷺ، ولكن الروايات لا تشير إلى اشتراكها في المعارك ـ بدر وأُحد والخندق ـ وغيرها من المعارك، لا سيما وأنها عاشت طويلاً، ومع هذا لا نستبعد مشاركتها في هذه الغزوات، وقيامها بدورٍ، لأن الكتب التاريخية لم تذكر كل اللواتي حضرن هذه الغزوات من النساء، وربما ذكرت من كان لهن دور بارز فيها، ونحن نذكر أن عائشة وبقية أمهات المؤمنين رضي الله عنهن كن يشتركن في هذه الغزوات، ويسهم الرسول ﷺ بينهن، فتذهب من يخرج سهمها، ولهذا لا نستبعد أن تكون أسماء قد شاركت في بعض الغزوات.

وجاء في كتاب «الطبقات الكبرى» لابن سعد عن طريق أبي واقد الليثي أنه قال: «وكانت أسماء بنت أبي بكر مع الزبير. قال: فسمعتها وهي تقول للزبير: يا أبا عبد اللَّه، والله إن كان الرجل من العدو ليمر يسعى فتصيب قدمه عروة أطناب خبائي فيسقط على وجهه ميتاً، ما أصابه السلاح»[1].

---

(١) «الطبقات الكبرى»، ج ٨، ص ٢٤٩.

واليرموك تلك المعركة التي انتصر فيها الإسلام كانت معلماً بارزاً من معالم الجهاد الإسلامي، وحضرها عدد من الصحابة كان من أبرزهم الزبير بن العوام الذي أبلى بلاء عظيماً، حتى اجتمع إليه جماعة من الأبطال يومئذٍ فقالوا: ألا تحمل فنحمل معك؟ فقال: إنكم لا تثبتون، فقالوا: بلى، فحمل وحملوا، فلما واجهوا صفوف الروم أحجموا، وأقدم هو حتى اخترق صفوف الروم وخرج من الجانب الآخر، وعاد إلى أصحابه.

ثم جاءوا إليه مرة ثانية ففعل كما فعل في الأولى، وجرح يومئذٍ جرحين بين كتفيه[1]، وكان رضي الله عنه قد أركب ابنه عبد اللَّه يوم اليرموك فرساً وهو ابن عشر سنين، وأوكل به رجلاً[2].

وقاتل نساء المسلمين في هذا اليوم، وقتلوا خلقاً كثيراً من الروم، وكن يضربن من انهزم من المسلمين ويقلن: أين تذهبون وتدعوننا للعلوج؟ فيرجعون للقتال. وكان لمواقفهن أثر كبير في المعركة، واستطعن مهاجمة جناح من أجنحة الروم بعدما اخترق صفوف المسلمين حتى عاد منهزماً.

وإذا كان لأسماء دور في اليرموك، فلقد كان لها موقف آخر زمن الفتنة، حينما كان سعيد بن العاص والياً على المدينة، كثر اللصوص، واستعروا بالمدينة لهذا اتخذت أسماء لنفسها خنجراً تحمي به نفسها وبيتها، ووضعته تحت رأسها. وعندما سئلت عن ذلك قالت: حتى أبعج به بطنه.

---

(١) «البداية والنهاية»، ج ٧، ص ١١.

(٢) البخاري ٧/ ٢٣٤ في «المغازي»، باب: قتل أبي جهل.

مواقف وأحداث

كانت أسماء رضي الله عنها تحرص على تربية أبنائها تربية إسلامية صالحة، فلا تترك أمراً ترى فيه خيراً إلا وجهتهم إليه، ولا ترى خطأ إلا وعظتهم، وحذرتهم منه، تفعل ذلك وهي التي رباها الإسلام، ونشأت في بيت الصّدِّيق.

وسمعت رسول الله ﷺ ورأته يربي أصحابه من الرجال والنساء وكانت واحدة من هذه المدرسة النبوية الطاهرة، ولنستعرض بعضاً من هذه المواقف مع أولادها لنرى صورة من صور التربية الإسلامية الحية.

حديثها عن الزبير وحسان بن ثابت

عن هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن جدتها أسماء أنها قالت:

مرَّ الزبير بمجلس من أصحاب رسول الله ﷺ وحسان (بن ثابت) ينشدهم من شعره، وهم غير نِشاط لما يسمعون منه، فجلس معهم الزبير ثم قال: ما لي أراكم غير أَذِنين (صاغين) لما تسمعون من شعر ابن الفُرَيعة ـ أي حسان ـ فلقد كان يعرض به رسول الله ﷺ، فيحسن استماعه ويجزل عليه ثوابه، ولا يشتغل عنه، فسُرَّ

حسان بشهادة الزبير وإنصافه، فقال يمدح الزبير:

أقام على عهد النبيّ وهديه ... حواريُّه والقول بالفعل يعدل
أقام على منهاجه وطريقه ... يُوالي وليَّ الحق والحق أعدل
هو الفارس المشهور والبطل الذي ... يصول إذا ما كان يوم مُحجَّل
إذا كشفت عن ساقها الحرب حشَّها[1] ... بأبيض سبّاق إلى الموت يُرْقِل
وإن امرءاً كانت صفية أمه ... ومن أسد في بيتها لَمُؤَثَّل
له من رسول الله قربى قريبة ... ومن نصرة الإسلام مجد مؤثل
فكم كربة ذبَّ الزبير بسيفه ... عن المصطفى والله يعطي فيُجزل
ثناؤك خير من فعال معاشر ... وفعلك يا ابن الهاشمية أفضل[2]

وهذا توجيه لطيف من أسماء لأولادها عن أدب الاستماع وحسن الاقتداء برسول الله ﷺ، مع ضرب المثل بزوجها الزبير، ليتعلم الأبناء والأحفاد الأدب النبوي، فضلًا عما في الحادثة من لفتة كريمة إلى منزلة الشعر الإسلامي، والأدب الإسلامي، وضرورة تكريمه وتشجيعه مع تشجيع أصحابه لأنهم سيوف من سيوف الدعوة.

نصيحة لأمير المؤمنين

وعندما بايع الناس ابنها عبد اللَّه أميراً للمؤمنين، وكاد الأمر يتم له، جاءته أسماء فحدثته بما سمعت من رسول الله ﷺ عن الكعبة فقال:

---

(١) حشها: أسعرها.
(٢) «سير أعلام النبلاء» ١/ ٤١، تحقيق شعيب الأرنؤوط وغيره، ط ١٤٠١ هـ.

«إن أمي أسماء بنت أبي بكر حدثتني أن رسول الله ﷺ قال لعائشة:

«لولا حداثة عهد قومك بالكفر، رددت الكعبة على أساس إبراهيم فأزيد في الكعبة من الحِجْر».

فذهب عبد اللَّه بعدها وأمر بحفر الأساس القديم فوجدوا قلاعاً أمثال الإبل، فحركوا منها صخرة فبرقت بارقة، فقال: أقروها على أساسها، فبناها ابن الزبير من جديد وجعل لها بابين، يُدخل من أحدهما ويُخرج من الآخر، وضم حجر إسماعيل إليها.

هكذا كانت تنصح ابنها ليعمل بأمر الله ورسوله.

ماذا تقول عند المرض؟

أخرج ابن سعد بسند حسن عن ابن أبي مليكة أن أسماء كانت تصدع[1] فتضع يدها على رأسها وتقول: «بذنبي ـ وما يغفر الله أكثر». وكانت تمرض المرضة وكلما مرضت تعتق مملوكاً لها.

وهذه صفة المؤمن يصبر على ما يصيبه، ويشكر على ما يأتيه، فلا يضجر ولا يخرج عن طوره، بل يرى ذلك ابتلاءً يكفّر الله به الذنوب[2].

السخاء في سبيل الله

عن عبد اللَّه بن أبي مليكة عن عبّاد بن عبد اللَّه بن الزبير عن أسماء بنت أبي بكر أنها جاءت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله، ليس

---

(١) تصاب بصداع في رأسها.

(٢) هناك أحاديث كثيرة في هذا الموضوع.

في بيتي شيء إلا ما أدخل عليَّ الزبير، فهل عليَّ جناح أن أرضخ مما أدخل عليَّ؟

فقال ﷺ: «**ارضخي ما استطعت، ولا توكي فيوكيَ الله عليك**». وفي رواية: قالت: أفأعطي؟ قال: «**نعم، لا توكي فيوكي الله عليك**». وفي رواية: «**لا تحصي فيحصي الله عنك**»[1].

هكذا كانت تسأل حتى لا تقع في معصية الله، تأخذ من مال زوجها لتنفق في سبيل الله، ولا تربط على مالها ولا تخفيه وتحصيه وتحرص عليه، لأن من يحرص على المال خوفاً من ذهابه يضيِّق الله عليه، فالمؤمن يثق بكرم الله ويعرف أن منه الرزق، ينفق بالإحسان، وينتظر الكريم المنان.

وإذا كانت أسماء تحدث أبناءها بحديث رسول الله ﷺ هذا، فلقد كانت قدوة لهم في النفقة لا يسألها سائل إلا وتعطيه، ولا يأتيها مال إلا وتنفقه في سبيل الله.

ولكنها ـ أيضاً ـ كانت تدرك أن الله عزّ وجلّ يعلم ما تكنه الصّدور، لذلك سألت رسول الله ﷺ بعد أن أصبح لها ضرة فقالت: «يا رسول الله، إن لي ضرّة، فهل علي جناح إن تشبَّعت من زوجي غير الذي يعطيني؟».

فقال رسول الله ﷺ: «**المتشبِّعُ بما لم يُعْطَ كلابس ثوبَيْ زور**»[2]. وهنا علمت أسماء، وعلَّمت أبناءها أن المرأة التي تأخذ

---

(١) انظر القسم الثاني من الكتاب: مسند الأسماء.

(٢) أخرجه البخاري كتاب «النكاح» (١٧٠)، ومسلم في «اللباس» ٣٤/ ٢ و٣٤/ ٣، وأبو داود في «الأدب» ١/ ٩١، والنسائي في «عشرة النساء».

من زوجها لتنفق في سبيل الله هي مأجورة مع زوجها. أما إذا أخذت منه للترفيه وللكسب، نكاية بضرتها أو حباً في التميز فإن ذلك زور وبهتان.

فلتسمع نساء المسلمين هذا الدرس النبوي الذي ترويه لهنّ أسماء.

obeikandl.com

كسوة النساء

وعن هشام بن عروة أن المنذر بن الزبير قدم من العراق، فأرسل إلى أسماء أمه بكسوة من ثياب مرويّة وقوهية[1] رقاق عتاق، بعدما كُفَّ بصرها. قال:

فلمستها بيدها ثم قالت: أُفٍّ، ردوا عليه كسوته، قال: فشق ذلك عليه وقال: يا أمه، إنه لا يشفّ.

فقالت: إنها إن لم تشف فإنها تصف.

فذهب المنذر واشترى لها ثياباً مروية وقوهية، فقبلتها، وقالت: مثل هذا فاكسُني.

فأين هذا مما تشتهيه النساء اليوم وتلبسه، إنهن يبحثن عما يشف ويصف، بدلاً من التستر والحشمة.

مخافة الله عزّ وجلّ

وسئلت أسماء: هل كان أحد من السلف يُغشى عليه من الخوف؟

فقالت: لا، ولكنهم كانوا يبكون.

---

(١) نسبة إلى مروة وقوه.

ذرية بعضها من بعض

وكانت أسماء من أكثر النساء تعبيراً للرؤيا، وأخذ ذلك عنها سعيد بن المسيِّب، وكانت هي قد أخذت ذلك عن أبيها الصّدِّيق.

والتعبير عن الرؤيا يحتاج إلى ذكاء وصدق، وفهم للطبائع والأفكار ومعرفة بالحياة العامة.

إذا قرئ القرآن

وعن عبد اللَّه بن عروة عن جدته أسماء قال:

قلت لها: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرئ عليهم القرآن؟

قالت: كانوا كما نعتهم الله، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم.

قال: فإن ناساً قرئ عليهم القرآن خرّ أحدهم مغشياً عليه.

قالت: أعوذ بالله من الشيطان[1].

الأمر بالصدقة

وكانت تأمر أبناءها بالصّدقة كما حدثتنا فاطمة بنت المنذر فقالت:

كانت تقول لبناتها وأهلها: أنفقوا أو أنفقن وتصدقن ولا تنتظرن الفضل، فإنكن إن انتظرتن الفضل لم تُفضلن شيئاً، وإن تصدقتن لم تجدن فقده.

---

(١) كتاب «الزهد» لعبد اللَّه بن المبارك، بتحقيق حبيب الرحمٰن الأعظمي، ص ٥٣.

هذه شذرات من التربية اليومية التي كانت تمارسها أسماء مع أولادها وأحفادها.

تربية إسلامية تقوم على كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ.

تربية واقعية تعالج شتى نواحي الحياة، وتهذب سلوك الفرد بما يناسب سنّه ويتلاءم مع طبعه وفطرته.

تربية حقيقية، تمارسها أسماء وتعطي لبنيها صورة يقتدون بها، وتضع أمامهم أمثلة رائعة من الأدب القرآني، والتربية النبوية، والنماذج الواقعية في صحابة رسول الله ﷺ.

لهذا لا نعجب أن تربي أبناءً كعبد اللَّه وعروة وهشام والمنذر وعاصم والمهاجر وخديجة الكبرى وأم الحسن وعائشة[1].

ألا فلنعد إلى هذه الوقائع اليومية لندرك حقيقة الحياة التي رفعت ذلك الجيل إلى الأفق السامي.

ما يكون بين المرأة وأم زوجها

أخبرنا أبو الحسين بن الفراء، وأبو غالب وأبو عبد اللَّه ابنا البنا، قالوا: أخبرنا أبو جعفر المعدل، أخبرنا أبو طاهر الذهبي، أخبرنا أحمد بن سليمان، أخبرنا الزبير، حدثني عبد اللَّه بن محمد بن المنذر بن عبد اللَّه بن المنذر بن الزبير عن صفية بنت الزبير بن هشام بن عروة، وهي خالة أبيه محمد بن المنذر، عن هشام بن عروة عن أبيه قال:

---

(١) «تاريخ دمشق» لابن عساكر، (تراجم النساء) ٨.

«جرى بين صفية بنت عبد المطلب وبين ابنها الزبير بن العوام عتاب في أمرَ زوجته أسماء بنت أبي بكر، فسمعتْ الذي جرى بينهما من ذلك خديجةُ بنت الزبير، وهي جارية صغيرة، وكانت تكون مع جدتها صفية، فقالت لأمها: يا أمتاه، لأيِّ شيء اشتكت جدتي حتى اشتكت إلى أبي؟.

فلم تزل بها أسماء حتى أخبرتْها الخبرَ. فشجّت أسماء من شكوى صفية لها وتعذّرت منه، فبلغ صفية ما كان منها، فغضبت وقالت للزبير: يكون بيني وبينك شيء فترفعه إلى امرأتك وتؤثرها عليّ؟ فقال ـ وهو لا يعلم من نقل الحديث ـ: لا والله يا أمتاه، ما فعلتُ. فازدادت غضباً. وكان غضبها ما لا يطاق، فاندفعت تقول:

عالجتُ أزمانَ الدهورِ عليكُمُ ... وأسماءُ لم تشعرْ بذلك أيِّمُ
فيكثر إن عوفيتم وسلمتمُ ... سروري، وإني إن فرحتم لأرزمُ
وتؤثر أخرى، لم تلدك على التي ... لها الحق ينثوه[1] فصيح وأعجمُ
فلو كان في الكفار زبر عذرته ... ولكنه زبراً أيها الناس مسلمُ

وعلم الزبير من حيث خرج الخبر، فقال لها: يا أمتاه، التي خرج الحديث منها ابنتك خديجة. قالت: كذا لك، لا ترعلي خديجة أبداً[2].

---

(١) نثا الخبر نثواً: حدّث به وأشاعه وأظهره.
(٢) تاريخ ابن عساكر، (تراجم النساء) ١٨.

أسماء في وجه الطغيان

رغم كل المواقف التي وقفتها أسماء، والأحداث التي مرت بها، والتي جعلتها علماً بارزاً بين نساء العالم، فإن موقفها من الحجاج بن يوسف الثقفي كان موقفاً عظيماً، حتى أضحت أسماء تذكر به، وظلت حياة الحجاج تقترن بهذا الموقف أيضاً، ولم تستطع عظم الأحداث التي جرت آنذاك، والحروب الطاحنة التي وقعت بين عبد اللَّه بن الزبير ـ رضي الله عنهما ـ والأمويين، أن تطمس على موقف أسماء. لقد كانت مواقفها أكبر من البطولات، وأعظم من التضحيات، حتى لم يخلُ كتاب من كتب التاريخ أو السِّيَر، أو الحوادث، أو المجتمع، أو النساء من ذكرها وذكر مواقفها العظيمة.

ولا بد لنا من رسم صورة مختصرة لابن الزبير الذي اشترك في هذه الأحداث وكان بطلها، يسترشد بنصائح أمه أسماء، ويأخذ برأيها.

يقول الذهبي عنه في كتابه العظيم «سير أعلام النبلاء» ما يلي:

عبد اللَّه بن الزبير كان أوّل مولود للمهاجرين في المدينة، وُلد سنة اثنتين، وقيل: سنة إحدى.

له صحبة ورواية أحاديث، وعداده في صغار الصّحابة، وإن

كان كبيراً في العلم، روى عن أبيه، وجده الصّدِّيق، وأمه أسماء، وخالته عائشة، وعن عمر وعثمان وغيرهم.

وحدَّث عنه أخوه الفقيه، وابناه عامر وعبادة، وابن أخيه محمد بن عروة، وعبيدة السلماني، وطاووس، وعطاء، وابن أبي مليكة، وعمرو بن دينار، وثابت البُناني، وأبو الزبير المكي، وأبو إسحاق السبيعي، ووهب بن كيسان، وسعيد بن ميناء، وحفيداه: مصعب بن ثابت بن عبد اللَّه ويحيى بن عبّاد بن عبد اللَّه، وهشام بن عروة، وفاطمة بنت المنذر بن الزبير وآخرون.

وكان فارس قريش في زمانه، وله مواقف مشهودة. قيل: إنه شهد اليرموك وهو مراهق، وفَتْحَ المغرب، وغزوَ القسطنطينية، ويوم الجمل مع خالته عائشة.

قيل: أدرك من حياة رسول الله ﷺ ثمانية أعوام وأربعة أشهر، وكان ملازماً للولوج على رسول الله ﷺ لكونه من آله، فكان يتردد على بيت خالته عائشة[1].

وقال الواقدي عن مصعب بن ثابت عن يتيم عروة أبي الأسود، قال: لما قدم المهاجرون أقاموا لا يولد لهم، فقالوا: سحرتنا يهود، حتى كثرت القالة في ذلك، فكان أوّل مولود ابنُ الزبير، فكبَّر المسلمون تكبيرة واحدة حتى ارتجت المدينة، وأمر النبي ﷺ أبا بكر، فأذن في أذنيه بالصّلاة.

---

(١) وفي سنن أبي داود بإسناد صحيح عن عائشة أنها قالت: «يا رسول الله، كل صواحباتي لهن كنى، قال: «**فاكتني بابنك عبد اللَّه**». قال الراوي: يعني بابنها عبد اللَّه بن الزبير، وهو ابن أختها أسماء وقد مرّ في الصفحات السابقة.

وفي البخاري عن عروة، أن الزبير أركب ولده عبد اللَّه يوم اليرموك فرساً وهو ابن عشر سنين، ووكل به رجلاً[1].

وحدثت أم جعفر بنت النعمان أنها سلمت على أسماء بنت أبي بكر، وعندها ابن الزبير، فقالت: قوام الليل، صوام النهار، وكان يسمى حمامة المسجد.

وقال ابن أبي مليكة: قال لي عمر بن عبد العزيز: إن في قلبك من ابن الزبير؟

قلت: لو رأيته ما رأيت مناجياً، ولا مصلياً مثله.

وروى حبيب بن الشهيد عن أبي مليكة قال: كان ابن الزبير يواصل سبعة أيام (أي في الصيام) ويصبح في اليوم السابع وهو أليثنا (أقوانا وأشجعنا).

وحدثنا عمر بن قيس عن أمه أنها دخلت على ابن الزبير بيته، فإذا هو يصلي، فسقطت حية على ابنه هاشم، فصاحوا: الحية الحية، ثم رموها فما قطع صلاته.

وعن عثمان بن طلحة قال: كان ابن الزبير لا ينازع في ثلاثة: شجاعة ولا عبادة ولا بلاغة[2].

وقال عنه الذهبي في كتابه «العبر في خبر من غبر»: أمير

---

(١) كان ذلك خوفاً أن يمعن في صفوف العدو لشجاعته فيقتل لقلة خبرته آنذاك، وهذا نموذج للتربية العملية للولد، وغرس الشعور بالرجولة والمسؤولية في نفسه منذ الصغر.

(٢) «سير أعلام النبلاء» ٣/٣٦٣، ط ١، مؤسسة الرسالة، ١٤٠١ هـ. تحقيق شعيب الأرنؤوط وصحبه.

المؤمنين، وفارس قريش، وابن حواري رسول الله ﷺ، وكان صوّاماً قوّاماً بطلًا شجاعاً فصيحاً مفوّهاً، قتل في جمادى الأولى وطِيف برأسه في مصر وغيرها[1].

كانت لابن الزبير هذه الصّفات، فلا عجب أن يبايع بالخلافة بعد موت يزيد بن معاوية وابنه معاوية بن زيد بن معاوية الذي تولى الخلافة لمدة أربعين يوماً، ولم يستخلف أحداً.

وكان هناك اختلاف في بني أمية فاز بعدها مروان بن الحكم بالخلافة بينهم، وبدأ يقاتل لإرساء ملكه، ولكنه مات خنقاً بعد عشرة أشهر واستخلف بعده ابنه عبد الملك الذي بدأ في محاربة ابن الزبير وانتهت الحوادث إلى مقتل مصعب بن الزبير، الفارس البطل المشهور، وأمير العراق من قبل أخيه عبد اللّه، وأصبحت البصرة والكوفة تحت إمرة الأمويين. وهنا، أرسل عبد الملك جيشاً يقوده الحجاج بن يوسف الثقفي لمقاتلة عبد اللّه بن الزبير، وتخليص الحجاز منه.

أما الحجاج فهو ابن يوسف بن الحكم الثقفي. وُلد سنة ٤٠ هـ وتوفي سنة ٩٥ هـ. وهو قائد داهية سفاك، خطيب، وُلد ونشأ في الطائف، وانتقل إلى الشام فلحق بـ«روح بن زنباع» نائب عبد الملك بن مروان، فكان في عديد شرطته. ثم ما زال يظهر حتى قلّده عبد الملك أمر عسكره، وأمره بقتال عبد اللّه بن الزبير فزحف إلى الحجاز بجيش كبير، وقتل عبد اللّه وفرّق جموعه.

---

(١) حوادث سنة ٧٣ هـ.

كان سفاكاً باتفاق معظم المؤرخين[1].

وعندما استتب الأمر لعبد الملك في العراق قام خطيباً في حاشيته وأعوانه وقال: من لابن الزبير منكم؟ فقال الحجاج: أنا يا أمير المؤمنين. فأسكته ثم عاد يسأل ثلاثاً، والحجاج يقول: أنا، ثم قال: إني رأيت في النوم أني انتزعت جبّته فلبستها، فقعد له في الجيش إلى مكة حتى قدمها على ابن الزبير، فقاتله بها، فقال ابن الزبير لأهل مكة: احفظوا هذين الجبلين، فإنكم لن تزالوا بخير أعزة ما لم يظهروا عليهما. فلم يلبثوا أن ظهر الحجاج ومن معه على أبي قبيس ونصب عليه المنجنيق فكان يرمي به ابن الزبير ومن معه في المسجد، فلما كانت الغداة التي قتل فيها ابن الزبير، دخل على أمه أسماء بنت أبي بكر وهي يومئذٍ ابنة مائة سنة، لم يسقط لها سن، ولم يفقد لها بصر[2]، فقالت لابنها: يا عبد اللّه، ما فعلت في حربك؟

قال: بلغوا مكان كذا وكذا. وضحك ابن الزبير، ثم قال: إن في الموت لراحة. قالت: يا بني، لعلك تتمناه لي، ما أحب أن أموت حتى آتي على أحد طرفيك إما أن تملك فتقر بذلك عيني، وإما أن تقتل فأحتسبك.

ثم ودَّعها فقالت له: يا بني، إياك أن تعطي خصلة من دينك مخافة القتل.

---

(١) انظر: «الأعلام» المجلد الثاني.

(٢) ورد في كثير من الكتب والروايات أنها فقدت بصرها وكانت يومئذٍ لا تبصر.

وخرج عنها، ودخل المسجد، وقد جعل مصراعين على الحجر الأسود يتقي بهما أن يصيبه المنجنيق.

وأتى ابن الزبير آتٍ وهو جالس عند الحجر الأسود، فقال: ألا نفتح لك باب الكعبة فتصعد فيها؟.

فنظر إليه عبد اللَّه ثم قال له: من كل شيء تحفظ أخاك إلا من نفسه (يعني أجله)، وهل للكعبة حرمة ليست لهذا المكان؟ والله لو وجدوكم معلقين بأستار الكعبة لقتلوكم.

فقيل له: ألا تكلمهم في الصلح؟

قال: أوَحين صلح هذا؟ والله لو وجدوكم فيها لذبحوكم جميعاً. ثم أنشد يقول:

ولستُ بمبتاع الحياة بسبة ولا مرتقٍ من خشبة الموت سلَّما
أنافس سهماً إنه غير بارح ملاقي المنايا أي حرف يتمما

ثم أقبل على آل الزبير يعظهم ويقول: ليكن أحدكم سيفه كما يكن وجهه، لا ينكسر فيذع عن نفسه بيده كأنه امرأة، والله ما لقيت زحفاً قط إلا في الرعيل الأول، ولا ألمت جرحاً قط إلا أن ألم الدواء.

ودخل عليهم من باب جمح قوم من جيش الحجاج فحمل عليهم وأخرجهم، ثم دخلوا من باب سهم فحمل عليهم وهو يقول:

لا عهد لي بغارة مثل السيل لا ينجلي غبارها حتى الليل

فأخرجهم من المسجد، فإذا بقوم قد دخلوا من باب بني مخزوم فحمل عليهم وهو يقول: لو كان قرني واحداً لكفيته.

وكان على ظهر المسجد من أعوانه من يرمي عدوه بالآجر وغيره، فحمل عليهم، فأصابته آجرة في مفرقه حتى فلقت رأسه، فوقف وهو يقول:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدما

ثم وقع فأكب عليه موليان له وهما يقولان: العبد يحمي ربه ويحتمي، ثم سير به فحز رأسه[1].

وعن إسحاق بن أبي إسحاق قال: أنا حاضر قتل ابن الزبير يوم قتل في المسجد الحرام، جعلت الجيوش تدخل من باب المسجد، فكلما دخل قوم من باب حمل عليهم وحده يخرجهم، فبينما هو على تلك الحال إذ جاءت شرفة من شرفات المسجد، فوقعت على رأسه، فصرعته وهو يتمثل بهذه الأبيات:

تقـــول أسمـــاء ألا تبكينـــي لـم يبـق إلا حسبـي ودينـي
وصارم لاثت به يميني[2]

وقال الذهبي معلقاً على ذلك: ما أخال أولئك العسكر إلا لو شاؤوا لأتلفوه بسهامهم، ولكنهم حرصوا على أن يمسكوه عنوة فما تهيأ لهم.

وعن نافع عن أبيه قال: سمع ابن عمر التكبير فيما بين

---

(١) نقلاً عن «مجمع الزوائد ومنبع الفوائد» للهيثمي، ج ٧، ص ٢٥٢ وما بعدها. وهذا الخبر رواه الطبراني، وفيه عبد الملك عبد الرحمٰن الذماري، وثَّقه ابن حبان وغيره، وضعَّفه أبو زرعة وغيره.

(٢) رواه الطبراني في «مجمع الزوائد»، وفيه جماعة لم أعرفهم.

المسجد إلى الحجون حين قتل ابن الزبير فقال: لَمَنْ كبَّر حين وُلد، أكثر وخير ممن كبَّر لقتله[1].

وجاء في «الأخبار الموفقيات» للزبير بن بكار عن مقتل ابن الزبير ما يلي:

حدثني الزبير قال: حدثني عمي مصعب بن عبد اللَّه عن الواقدي قال: حدثني ابن أبي الزناد عن مخرمة بن سليمان الوالبي قال[2]:

دخل عبد اللَّه بن الزبير على أمه أسماء بنت أبي بكر حين رأى الناس ما رأى من خذلانهم فقال:

يا أمه، خذلني الناس حتى ولديَّ[3] وأهلي، فلم يبق معي إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع أكثر من صبر ساعة، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ قالت: أنت ـ والله ـ أعلم بنفسك يا بني، إن كنت تعلم أنك على حق، وإليه تدعو فامضِ له، فقد قُتل عليه من مضى من أصحابك، ولا تمكِّن من رقبتك يتلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا، فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت من قتل معك، وإن قلت: كنتُ على حق، فلما وهن أصحابي ضعفت نيتي، فكل هذا ليس من فعل الأحرار،

---

(١) «سير أعلام النبلاء».

(٢) وكذلك في الطبري ٦/١٨٨، و«العقد الفريد» ٢/٣٧١، و«الفخري وبلاغات النساء» ١٣٠، وشرح ابن أبي الحديد ١/٦٩٦.

(٣) روي أن ابنيه حمزة وخبيب قد خرجا للحجاج وأخذا لأنفسهما أماناً. محقق الموفقيات.

ولا أهل الدين، كم خلودك يا بني في الدنيا؟ القتل أحسن.

وفي أكثر المصادر السابقة: قالت له: «والله لضربة بالسيف في عز، أحب إليَّ من ضربة بسوط في ذل».

قال: إني أخاف أن يمثلوا بي، فقالت: يا بني، إن الشاة لا يضرها سلخها بعد ذبحها.

ودنا عبد اللَّه فقبَّل رأسها ثم قال: هذا والله رأيي وعزمي، والذي هممت به داعياً إلى يومي هذا، وما ركنت إلى الحياة فيها، وما دعوت إلى الخروج إلا الغضب لله أن تُستحل حُرَمه، ولكني أحببت أن أعلم رأيك، فزدتني قوة وبصيرة مع بصيرتي، فانظري يا أمه، فإني مقتول من يومي هذا أن لا يشتد جزعك عليّ، وسلِّمي الأمر لله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة، ولم يَجُرْ في حكم، ولم يغدر في أمان، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، ولم يبلغني عن أحد من عمالي سوء فرضيته، بل أنكرته، ولم يكن شيء عندي آثر من رضا ربي، اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسي، أنت أعلم بي، ولكني أقوله تعزية لأمي لتسلو عني.

فقالت أمه: إني لأرجو من الله أن يكون عزائي عنك حسناً، إن تقدمتني أو تقدمتك ففي نفسي حرجٌ أنظر إلَامَ يصير إليه أمرك. فقال: جزاك الله خيراً يا أمه، فلا تدعي الدعاء قبلي وبعدي «لي حياً وميتاً». فقالت: لا أدعه إن شاء الله أبداً، فمن قُتل على باطل فقد قتلت على حق.

ثم قالت: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذاك النحيب والظمأ في هواجر المدينة ومكة، وبرَّه بأبيه وبي.

اللهم إني سلمت فيه لأمرك ورضيت بما قضيت، فأثبني في عبد اللَّه ثواب الشاكرين الصّابرين.

ثم خرج من عندها، ولبس درعاً ومغفراً، فوقف عليها، ثم دنا منها فتناول يدها وقبَّلها، وقالت: هذا وداعُ، فلا تبعد إلا من النار. فقال عبد اللَّه: إنما جئت مودعاً يا أمه، إني لأرى هذا آخر يوم من الدنيا يمر بي.

اعلمي يا أمه: أني إن قتلت فإنما أنا لحم، ما يضرني ما صُنع بي.

قالت: صدقت. ثم قالت: يا بني، أقم على بصيرتك، ولا تمكِّن بني أبي عقيل منك، وادنُ مني حتى أودعك.

فدنا منها، فعانقها، وقالت حيث وجدت مس الدرع: ما هذا صنيع من يريد ما تريد.

فقال: ما لبست هذا الدرع إلا لأشد منك.

فقالت: إنه لا يشد مني، بل يخالفني.

فخرج عبد اللَّه من عندها، فنزع درعه، وتوجه إلى القتال وهو يقول:

إنـــي إذا أعـــرف يـــومـــاً أصبـــر إذ بعضهـم يعـرف ثـم ينكـر

ففهمت أمه قوله فقالت: تصبر والله، إن شاء الله. أبوك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبد المطلب.

ثم لاقاهم، فحمل عليهم غير مرة فهزمهم حتى قتل[1].

---

(١) «الأخبار الموفقيات» للزبير بن بكار، طبعة إحياء التراث الإسلامي ٧، تحقيق =

ولما سقط، صاحت جارية له: واأمير المؤمنين، فعرفوه، فشدوا عليه من كل جانب وقتلوه قريباً من باب المسجد من ناحية الصفا، وكان ذلك في جمادى الأولى سنة ٧٣ هـ[١].

هذه هي مقدمة الصورة التي انتهت بها حياة ابن الزبير، صورة لا تستطيع أنفاس الناس أن تلاحقها، بل أن توفيها حقها من الوصف.

أُمٌّ يبلغ بها الإيمان أفقاً قلَّما يحلم به الرجال، فتتعرف سبيل الحق، وتعرف معنى الجهاد في سبيل الحق.

أُمٌّ تبلغ مائة سنة، تدب على الأرض دبيباً، تحتاج إلى من يعينها، وتحتاج إلى عطف وعون، ولكنها لا تضعف في هذا الموقف عن شد أزر ابنها وهو يسترشد برأيها ويأتي لوداعها.

أُمٌّ ترى ابنها وهو المحاصر من الطاغية، ومعه جند ظامئون لدمه لم تردعهم حرمة البيت الحرام، وقدسية مكة عن ضرب المسجد بالمنجنيق، وهدم أجزاء منه في سبيل السلطان، ومع ذلك لا تطلب من ابنها أن ينجو بنفسه أو يتلمس مخرجاً مما هو فيه.

أُمٌّ تعلمت من الرسول ﷺ أن الحق فوق الخَلْقِ، وأن العقيدة أغلى من الروح، وأن الأمر بيد الله، والفوز عنده، وليس في هذه الدنيا. فلم تأبه لموازين الأرض، ولم تخشَ بأس الطغاة، لذلك دفعت بابنها للجهاد، واستنكرت أن يحذر الموت في سبيل الله، وودَّعته ذلك الوداع الجليل.

= د. سامي العاني، بغداد، ص ٣١٣ وما بعدها.

(١) «شذرات الذهب» ١/ ٨٠.

أية كلمة تستطيع أن تصف ذلك الموقف؟ وأية سطور تستطيع أن تحلل هذه الأحداث؟

إنها أسماء بنت الصّدِّيق، إنها التي ربَّاها الإسلام، ونشأت مع العقيدة، وعلمت أن ما عند الله خير وأبقى.

وهل تنفع عقيدة لا ترفع أبناءها إلى هذه المستويات السامقة؟ وهل تنتصر عقيدة لا تتحول عند حَمَلتها إلى حياة حقيقية تتحرك بهم، وتسير بسيرهم، وتعرِّفهم كيف تكون الموازين في الحياة؟.

فلنقرأ هذه الأحداث مرات ومرات! ولنعد هذه المواقف درساً وفهماً وإدراكاً! لنعلم في أي مكان نحن من إسلامنا، وفي أي مستوى نحن من عقيدتنا، وفي أي دنيا من أجدادنا.

لنعد إلى قراءة هؤلاء النساء، قراءة حياة، ووعي، قراءة من يريد أن يؤمن حقاً، ويلتمس طريق الجنة، وإلا فلماذا ندَّعي أننا نؤمن بالله، ونبتغي مرضاته، وقلوبنا مطموسة بحب الدنيا، مغموسة بألف خوف وخوف من الشوكة الصغيرة التي تصيبنا، والدرهم الواحد الذي ينقص علينا، والعقبة البسيطة التي تعترضنا، والخوف من الأذى الذي قد يعرض لنا؟.

كيف يكون الأمر كله لله؟ وكيف نصل إلى العمل في سبيل الله إن لم تتحول حياتنا إلى إيمان حقيقي، وإلى حياة إسلامية واعية، وإن لم ننظر بعيوننا وقلوبنا إلى جنة عرضها السمٰوات والأرض، حتى تصغر نفوسنا الدنيا، وتذوب الصعاب، وتهون علينا الصعاب، وتصغر مخاوف الطغاة.

هذه دروس حقيقية، دروس في الإيمان، دروس في الصبر، دروس في الثبات، دروس في الجهاد، دروس في التضحية، دروس في الدعوة، دروس في معرفة الحق والثبات عليه.

إنها دروس حقيقية، على دربها، وفي ضوئها، يتمحص الناس ويظهر الصّادقون.

ولنكمل هذه الصورة، صورة الأم المجاهدة التي احتسبت ابنها عند الله وعلمته كيف يكون الثبات على الحق، والجهاد في سبيل الله، والصبر على المحنة.

وبعد مقتل ابن الزبير صلبه الحجاج على عقبة المدينة[1] ليري ذلك قريشاً. فلما أن تفرقوا جعلوا يمرون فلا يقفون عليه، حتى مرّ عليه عبد اللَّه بن عمر، فوقف عليه فقال: السلام عليك أبا خبيب ـ ثلاثاً ـ لقد كنت نهيتك عن ذا ـ ثلاثاً ـ أما والله ما علمت إن كنت لصوَّاماً قوَّاماً وصولاً للرحم، وإن أمة تكون أنت أشرَّهم لأمة صدق[2].

وبعث الحجاج إلى أسماء بنت أبي بكر أن تأتيه وقد ذهب بصرها، فأبت، فأرسل إليها: لتجيئن أو لأبعثن إليك من يسحبك بقرونك[3].

قالت: والله لا آتيك حتى ترسل إليَّ من يسحبني بقروني.

---

(١) اسم هذه العقبة (عقبة المدينة) وهي في مكة.

(٢) «تاريخ دمشق» (تراجم النساء) ٢٤ ـ ٢٤، و«مختصر تاريخ دمشق» ٥/١٤٣.

(٣) أي من شعرها.

فأتاه رسوله، فأخبره، فقال: يا غلام، ناولني سبتي[1]، فناوله نعليه فقام وهو يتوقد حتى أتاها، فقال: كيف رأيت الله صنع بعدو الله؟

قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك. وأما ما كنت تعيّره بذات النطاقين، أجل، لقد كان لي نطاقان: نطاق أغطي به طعام رسول الله ﷺ من النحل، ونطاق آخر لا بد للنساء منه، ولقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن في ثقيف مبيراً**[2] **وكذاباً**»، فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فأنت ذاك.

قال: فخرج[3].

هذه مقابلة بين أسماء والطاغية، تصاغر فيها الطغيان، وخنس الطاغية وارتعد وتراجع، وعلم أن جبروته سينكسر أمام صلابة المرأة المؤمنة الواعية، التي تقارعه بالحجة والبينة، وتحاربه بالموقف الإيماني الواعي، عجوز عمياء، تعلّم الحجاج هذا الدرس، حتى يخرج مذؤوماً مدحوراً.

وبعد ثلاثة أيام مرت أسماء من أمام ابنها المصلوب فقالت للحجاج: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ وفي رواية: أما آن لهذا الفارس أن يترجَّل؟.

فقال الحجاج: المنافق، ويعني به عبد اللَّه بن الزبير.

---

(١) حذائي.

(٢) مهلكاً يسرف في إهلاك الناس.

(٣) «مجمع الزوائد» ٢٥٦/٧. وقال عنه الهيثمي: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

فقالت له: لا والله، ما كان بمنافق، ولقد كان صوّاماً قوّاماً.

قال: فاسكتي يا عجوز قد خرفت.

قالت: ما خرفت، ثم ذكرت له حديث رسول الله ﷺ عن الكذاب والمبير.

وكان أصحاب الحجاج يقاتلون الزبير، ويصيحون به: يا ابن ذات النطاقين. فقال لهم: تلك شكاة ظاهرٌ عنك عارها.

فقالت له أسماء: عيروك به؟ قال: نعم، قالت: فهو والله حق.

ثم ذكرت ذلك للحجاج عند ملاقاته.

وفي رواية أخرى أن أسماء أتت الحجاج بعدما ذهب بصرها، ومعها جواريها، فقالت: أين الحجاج؟ قالوا: ليس هو هٰهنا، قالت: فإذا جاء قولوا له يأمر هذه العظام أن تنزل، وأخبروه أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن في ثقيف رجلين، كذاب ومبير**».

وحدث إسحاق الأزرق عن عوف الأعرابي عن أبي الصّدِّيق الناجي: أن الحجاج دخل على أسماء بنت أبي بكر فقال لها: إن ابنك ألحد في هذا البيت، وإن الله أذاقه من عذاب أليم، وفعل به ما فعل.

فقالت له: كذبت، كان براً بالوالدين، صوّاماً قوّاماً، ولكن والله لقد أخبرنا رسول الله ﷺ أنه سيخرج من ثقيف كذابان الآخر منهما شر من الأول وهو مبير.

وحدّث أيوب عن عبد اللّه بن أبي مليكة قال:

أتيت أسماء بعد قتل ابنها عبد اللَّه بن الزبير، فقالت: بلغني أنهم صلبوا عبد اللَّه منكساً، فلوددت أني لا أموت حتى يدفع إليَّ فأغسله وأحنطه وأكفنه ثم أدفنه.

فلم يلبثوا أن جاء كتاب عبد الملك أن يرفع إلى أهله، فأُتي به أسماء، فغسلته وطيبته، ثم حنطته ودفنته.

وكان مقتل ابن الزبير يوم الثلاثاء لسبع عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين.

وهكذا انتهت حياة هذا الصّحابي ابن الصّحابي وابن الصّحابية، في أروع صورة من صور البطولة والجهاد، وكانت سنة اثنتين وسبعين.

كان عبد اللَّه الفارس البطل، الصوّام القوّام يذكر بأمّه أسماء، وكانت أسماء تذكر بكل المواقف العظيمة التي وقفها ابنها عبد اللَّه.

وستظل أسماء كما ستظل غيرها من نساء المسلمين قدوة لنسائنا، بل ستظل مواقفها نبراساً للأمهات والنساء جميعاً.

فإلى هذه الحياة نرنو بأبصارنا، وإلى هذا الإيمان نتطلع في حياتنا، وإلى مثل هذه النماذج نعمل في تربية أبنائنا.

فهل نخطو في هذا الدرب خطوات حقيقية.

آخر المهاجرات وفاة

عاشت أسماء حياة مديدة، وتدل أكثر الروايات على أنها بلغت مائة سنة، وماتت سنة ثلاث وسبعين بعد مقتل ابنها بقليل.

وبعض الروايات تدل على أن وفاتها كانت بعد مقتل ابنها بعشرة أيام، وبعضها بعشرين، وبعضها بشهرين. ولعل الرواية الثانية أقرب للصحة لأنها ماتت بعدما دفنته، وكان ذلك بعد مجيء كتاب عبد الملك بتسليمه لأهله. ومع هذه السنوات الطويلة التي عاشتها، لم يسقط لها سن، ولم ينكر لها عقل، وكانت في آخر أيامها عجوزاً طوالة مكفوفة، لا تهزها الأحداث، ولا يذهب صبرها أمام المحن، وكانت آخر المهاجرات والمهاجرين وفاة. وهي وابنها وأبوها وجدها صحابيون[1].

وكانت ولادتها قبل الهجرة بسبع وعشرين سنة، وعاشت كما يقول الأصبهاني إلى أوائل أربع وسبعين، خلافاً للروايات السابقة، وكان عمر أبيها الصّدِّيق لما ولدت نيفاً وعشرين سنة[2].

---

(١) «تاريخ الإسلام» للذهبي، حوادث (٦١ ـ ٨٠)/ ٣٥٣، رقم الترجمة (١٣٧).

(٢) ورد أنها كانت أكبر من عائشة ـ رضوان الله عليهما ـ بعشر سنين، وعقب الذهبي بأن عمرها على هذا إحدى وتسعون سنة «تاريخ الإسلام». ولكن بقية الروايات تقول إنها عاشت مائة سنة.

وكانت زوجة مؤمنة تعرف قدر زوجها، تطيعه إذا أمرها، وتحفظه إذا غاب عنها، وتقوم بحوائجه كلها.

وكان الصّحابة يعرفون قدرها ومكانتها، ولذا فإن عمر ـ رضي الله عنه ـ عندما فرض الأعطية فرض لأسماء بنت أبي بكر ألف درهم[1].

وكان ابنها عبد اللَّه يعرف قدر أمه، ودخل مرة فرأى أباه الزبير يريد أن يضربها لأمر ما، فصاحت بابنها عبد اللَّه، فأقبل إليها، فلما رآه أبوه قال: أمك طالق إن دخلت.

فقال عبد اللَّه: أتجعل أمي عرضة ليمينك، فدخل فخلصها منه، فبانت منه. وقيل: إن سبب طلاقها من الزبير أن عبد اللَّه قال لأبيه: مثلي لا توطأ أمه، فطلقها[2].

وأياً كان السبب، فلم يكن أمر الطلاق صعباً، ولم يكن يدل على نقص في أحد الزوجين أو فشل في الحياة الزوجية، كان الزواج كما كان الطلاق أمراً عادياً ليس فيه تعقيد، وتبقى للرجل مكانته وقدره كما تبقى للمرأة مكانتها وقدرها قبل الزواج وبعده، وقبل الطلاق وبعده.

وليس غريباً أن يقف عبد اللَّه مع أمه هذا الموقف، لأنه كان يجلّها ويبرّها كما يجل أباه ويبره، ويعرف قدرها من بين النساء جميعاً، فهي ذات النطاقين. وروي أنه لما أراد الزبير الخروج إلى

---

(١) «تاريخ دمشق» (تراجم النساء) ٢٠.

(٢) المرجع السابق ١٨.

واقعة الجمل، جمع بنيه، فودع بعضهم وأخرج بعضهم، وأخرج ابني أسماء، فقال: يا فلان أَقِمْ، يا عمرو أقم.

فلما رأى ذلك عبد اللَّه بن الزبير قال: ياعروة أَقِمْ، ويا منذر أقم.

فقال الزبير: ويحك، استصحب ابنيّ، واستمتع منهما.

فقال: إن خرجت بهم جميعاً فاخرج، وإن خلفت منهم أحداً فخلفهما ولا تُعرِّض أسماء للثكل من بين نسائك. فبكى ـ رضي الله عنه ـ وتركهما[1].

وكانت تلك آخر وقفة للزبير حيث قتل بعدها.

وقال جويرية بن أسماء عن جدته أن أسماء بنت أبي بكر، غسلت ابن الزبير بعدما تقطعت أوصاله، وجاء الإذن من عبد الملك بن مروان عندما أبى الحجاج أن يأذن لها، فحنطته، وكفنته، وصلَّت عليه، وجعلت فيه شيئاً حين رأته يتفسخ إذا مشته.

وقال مصعب بن عبد اللَّه: حملته أمه فدفنته بالمدينة في دار صفية أم المؤمنين، ثم زيدت دار صفية بالمسجد، فهو مدفون مع النبي ﷺ[2].

ومن مآثرها أنها كانت لا تدخر شيئاً لغد، وأنها أعتقت عدة مماليك. وقد أوصت قبل موتها فقالت:

إذا أنا مُتُّ فاغسلوني، وكفنوني، وحنطوني، ولا تذروا على كفني حنوطاً ولا تُتبعوني بنار.

---

(١) هذه صورة من التقدير والوفاء بين الزبير وأسماء.

(٢) «سير أعلام النبلاء» عن تهذيب ابن عساكر، وربما كانت هذه الرواية ضعيفة.

وفي رواية قالت: جمروا ثيابي وحنطوني، ولا تحنطوني فوق أكفاني.

ومما كانت تقوله لبناتها: «تصدَّقْن ولا تنتظرنّ الفضل، فإنكن إن انتظرتن الفضل لم تجدنه، وإن تفْقدنَ لا تجدن فقْده».

«أنفقوا أو أنفقن وتصدقن، ولا تنتظرن الفضل، فإنكن إن انتظرتن الفضل لم تُفْضلن شيئاً، وإن تصدقتن لم تجدن فقده».

وعن القاسم بن محمد قال: سمعت ابن الزبير يقول: ما رأيت امرأتين قط أجود من عائشة وأسماء، وجودهما مختلف. أما عائشة، فكانت تجمع الشيء إلى الشيء حتى إذا اجتمع عندها وضعته مواضعه. وأما أسماء فإنها كانت لا تدخر شيئاً لغد[1].

وكانت قدوة في التقوى والخوف من الله عزّ وجلّ.

عن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا سمعوا القرآن؟ قالت: تدمع أعينهم، وتقشعرّ جلودهم، كما نعتهم الله. قال: قلت: فإن ناساً هٰهنا إذا سمع أحدهم القرآن خرّ مغشياً عليه. فقالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وعنه قال: أرسلتني أسماء بنت أبي بكر إلى السوق، وقد افتتحت بسورة الطور. فخرجت وقد انتهت إلى: ﴿**ووقانا عذاب السموم**﴾ فذهبتُ إلى السوق، ثم رجعت وهي تكررها: ﴿**ووقانا عذاب السموم**﴾ وهي تصلي.

---

(١) «تاريخ دمشق» لابن عساكر، (تراجم النساء) ١٩ ـ ٢٠.

وعن فاطمة بنت المنذر أن أسماء كانت تمرض المرضة فتعتق كل مملوك لها.

وعن فاطمة بنت المنذر أنها قالت: ما رأيت أسماء لبست إلا معصفراً حتى لقيت الله عزّ وجلّ، وإن كانت تلبس الدرع يقوم قياماً من العُصْفر[1].

وهكذا انتهت حياة أسماء بنت أبي بكر، أم عبد اللَّه بن الزبير، وزوجة حواري رسول الله ﷺ الزبير بن العوام، وذات النطاقين. انتهت حياتها وانتقلت إلى جوار ربها لتترك لأمة الإسلام دروساً خالدة، في حركة الدعوة، وفي مسؤولية المرأة، ودورها في الإسلام. كانت بنتاً صالحة نشأت في بيت الصّدِّيق المؤمن صاحب رسول الله ﷺ، وكانت زوجة مؤمنة وفية، أخلصت لزوجها وحملت معه أعباء الدعوة في سبيل الله وشاركت في أهم الأحداث ولا سيما الهجرة.

وكانت أماً مجاهدة علّمت الأجيال كيف تقف الأمهات أمام الطغاة، وكيف تربي المسلمة أبناء الإسلام.

كانت صحابية ابنة صحابي ابن صحابي، وأم صحابي، ولم يكن ذلك لغيرها[2]. ومهما تعاقب الزمان سيظل لها وسام الجهاد، وسام النبي ﷺ، واللقب الخالد «ذات النطاقين».

---

(١) المرجع السابق ٢١.

(٢) كانت صحابية، وأبوها الصديق صحابي، وجدها أبو قحافة صحابي، وابنها عبد اللَّه صحابي. ولم تجتمع هذه السلسلة لأحد.

أسماء الشاعرة ترثي زوجها الزبير

كانت أسماء وفية لزوجها. وبعد طلاقها منه ظلت تحفظ له ذكريات المودة والعشرة الطويلة. هو الزبير بن العوام حواريّ رسول الله ﷺ، وأبو عبد اللَّه وعروة، الفارس البطل، أحد المبشَّرين بالجنة.

وعندما قتل الزبير على يد عمرو بن جرموز المجاشعي الذي اغتاله في وادي السباع[1]، بعد أن اعتزل الفتنة والقتال، وعلمت أسماء بمقتله قالت:

غدا ابن جرموز بفارس بهمة ... يوم الهياج وكان غير مُعرّد

يا عمرو لو نبهته لوجدته ... لا طائشاً رعش الجنان ولا اليد

ثكلتك أمك إن قتلت لمسلماً ... حلَّت عليك عقوبة المتعمّد[2]

وهذا يدل أيضاً على أنها كانت صاحبة منطق وبيان، يدل على ذلك ردها على الحجاج، ووصاياها لابنها.

---

(١) وادي السباع على بعد خمسة أميال من البصرة.

(٢) «أعلام النساء» ١/ ٤٩.

أسماء وحديث رسول الله ﷺ

أسماء بنت أبي بكر، صحابية امتازت بأنها مع ابنها عبد اللَّه بن الزبير، وأبيها أبي بكر الصّدِّيق، وجدها أبي قحافة، كانوا جميعاً من الصّحابة رضوان الله عليهم.

ولا يعرف لغيرهم ذلك إلا لمحمد بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر بن أبي قحافة[1].

لذلك كان لها في كتب الحديث عدد لا بأس به، وليس ذلك غريباً على بنت الصّدِّيق، وأخت أم المؤمنين عائشة ـ عالمة نساء العالمين[2] ـ وزوجة الزبير بن العوام، وأم عبد اللَّه بن الزبير.

ولقد أخرج لها المحدِّثون عدداً لا بأس به من الأحاديث، حدّدهم النووي بستة وخمسين حديثاً[3]، اتفق البخاري ومسلم على أربعة عشر حديثاً، وانفرد البخاري بأربعة، وانفرد مسلم بمثلها[4].

---

(١) «الأسماء واللغات» ١/ ٣٢٩ للنووي، و«مطالع الأنوار» للكازروني. انظر: «أعلام النساء» ١/ ٤٨.

(٢) انظر كتاب «عائشة أم المؤمنين وعالمة نساء العالمين» للأستاذ عبد الحميد طهماز.

(٣) «الأسماء واللغات». وقيل: إنها روت ٥٨ حديثاً.

(٤) «الكمال في معرفة الرجال» للمقدسي.

وقيل: إنّها روت (٥٨) حديثاً. وفي رواية أخرى (٥٦) حديثاً[١].

بينما يذكر غيره أن لها في الصحيحين اثنين وعشرين حديثاً، والمتفق عليها من هذه الأحاديث ثلاثة عشر، وانفرد البخاري بخمسة، ومسلم بأربعة[٢].

وروى عنها ابناها: عبد اللَّه وعروة، وحفيدها هشام بن عروة وعبّاد بن عبد اللَّه، وعباد بن حمزة بن عبد اللَّه بن الزبير، وحفيدتها فاطمة بنت المنذر زوجة هشام، وكذلك عبد اللَّه بن عباس، وعبد اللَّه بن أبي مليكة، وكذلك حفيدها عبّاد بن عبد اللَّه بن الزبير وغيرهم.

وجاء في «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» أنه روى عنها: تدرُس جد أبي الزبير محمد بن مسلم بن تدرس المكي مولى حكيم بن حزام، وطلحة بن عبد اللَّه بن عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصّدِّيق، وعباد بن حمزة بن عبد اللَّه بن الزبير، وعباد بن عبد اللَّه بن الزبير، وابنها عبد اللَّه بن الزبير، وعبد اللَّه بن عباس، وعبد اللَّه بن عبيد اللَّه بن أبي مليكة، وعبد اللَّه بن عروة بن الزبير، ومولاها عبد اللَّه بن كيسان، وابنها عروة بن الزبير، والقاسم بن محمد الثقفي، ومرزوق الثقفي خادم عبد اللَّه بن الزبير، ومسلم المقرئ، وأبو نوفل بن أبي عقرب، وأبو واقد الليثي، وصفية بنت شيبة، وفاطمة بنت المنذر بن الزبير[٣].

---

(١) «أعلام النساء» ١/ ٤٨ ـ ٤٩.

(٢) «المجتني» لابن الجوزي.

(٣) «تهذيب الكمال في أسماء الرجال» ٣٥/ ١٢٣ ـ ١٢٤ ـ ١٢٥، رقم =

واتفق رواة الصحاح الستة على روايتها عن النبي ﷺ. ووردت أحاديثها في كتب البخاري، ومسلم، والنسائي في «السنن والسنَّة»، وأبي داود، وابن ماجه، وكتاب «الأدب المفرد» للبخاري، وفي مسند الإمام أحمد، وصحيح ابن حبان، وغيرها من كتب التراجم والحديث.

وسأبذل جهدي في إيراد هذه الأحاديث مع الإشارة إلى روايتها وسألحق بهذا القسم ما أجده مفيداً من الشروح والتعليقات التي كتبها أئمة الحديث وشرَّاحه، مما يساعد على فهم الحديث أولاً، ويزيد في جلاء الصورة للمرأة الصّحابية التي شاركت في الدعوة وضربت أروع الأمثلة، لنتأسَّى بها، أبناء وبنات، وزوجات وأمهات، وآباء وأحفاد.

وأجتهد أيضاً في استخلاص بعض الفوائد التي يكرمني الله بها لأستفيد منها في تجلية الأحداث.

وعندما عدت إلى كتب الحديث رأيت أسماء من أكثر المسلمات رواية للحديث بعد أختها عائشة، وأم سلمة، وحفصة أمهات المؤمنين.

وتوزعت الأحاديث التي روتها في أبواب كثيرة، منها ما يخص المرأة بالذات، ومنها ما يخص العبادات المفروضة بشكل عام، ومنها ما يدل على متابعة أسماء لأحداث الدعوة وجهاد المسلمين، وتطورات الأحداث.

= الترجمة (٧٧٨٠). وانظر أيضاً: «تهذيب التهذيب» لابن حجر ٤/٦٦٣، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر (تراجم النساء)، ص ٣.

وسأحاول في ترتيب الأحاديث جمعها في أبواب متعددة، كأبواب العبادات وغيرها، وأبدأ بروايات البخاري، ثم مسلم، ثم بقية الروايات، فإذا تماثلت الروايات أكتفي بواحدة، وأثبت طريقها وأشير إلى بعض الزيادات أو الاختلافات، وقد أثبتُ عدة روايات إذا كان الفرق بينها كبيراً، أو مهمًّا.

وأسأل الله أن يتقبل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعلنا نتأسَّى بحَمَلة هذا الدين: رسول الله ﷺ وصحابته الذين صدقوا الله فنصرهم، وأخلصوا له فوفَّقهم، وضحُّوا وجاهدوا فأثابهم في الدنيا والآخرة.

obeikandl.com